تاريخ استعمار انكلترا

للهند الصينية

بقلم السيد طه السقاف العلوى (سنغافورة)

إن جزر الهند الصينية، لم يكن شأنها بالتافه الذى لا يستحق التقدير، ولا يستدعى الدرس والعناية، فإن لهذه الجزر عمراناً قديماً وتاريخاً يرجع إلى آلاف السنين؛ وقد اشتهرت هذه الجزائر بوفرة الحاصلات الزراعية وكثرة مناجم الذهب والأحجار الكريمة، أضف إلى ذلك (البهارات) الموجودة فيها بكثرة فائقة.

لهذا تطلعت إليها الأنظار، واشرأبت إليها الأعناق، وتهافتت عليها لتتمتع بخيراتها الشعوب فى صور شتى: فمن غزاة مستعمرين؛ إلى قرصان بحرية، إلى شركات تجارية، وأصبحت فى مستهل القرن السادس عشر فما بعده مهوى كثير من الشعوب وطلبتهم.

وانتال عليها ـ لأول مرة فى تاريخ استعمار الغربيين لها ـ البرتغاليون، فالهولنديون؛ فالانجليز، فى عهد الملكة (أليزابيث)؛ جاء هؤلاء الغربيون فى فترات متفاوتة، ويعلم القارىء مما مر أن أسبقهم إلى هذه الجزائر هم البرتغال، وجاء على أثرهم الهولنديون مسمين الطريق الذى اكتنفه قرصان البرتغاليين، ثم قفت آثار أولئك شركة الهند الانجليزية.

أما عمران هذه الجزر القديم وعظمتها التاريخية، فليس أدل عليه من أن إحدى بلدانها المسماة (ملاكا) الواقعة فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة (ملقا)، كانت تضم من السكان ما بين هندى إلى برتغالى، وهولندى إلى انجليزى، وغربى إلى صينى ـ فى عهد ملكها «محمد شاه» فى منتصف القرن الخامس عشر ـ أكثر من تسعمائة ألف نفس، ولما أحصى سكانها عام ١٩٣١ وجد أنهم لم يتجاوزوا ٢٠٣٠٠٠ نسمة بالرغم من أنها ليست يباباً ولا خراباً فى عهدها الحالى.

واختلف المؤرخون فى أصل الملايو؛ فقال كثير منهم: إنهم من سلالة «الجنس الجاكونى المتوحش»، وقال آخرون: إنما هم من جنس آخر يدعى سمنغ؛ وقبيلة سمنغ هذه سبقت ـ قبيلة الجاكونية بقرون، ولا يزال أعقابها موجودين حتى الآن، ويكثر وجود هؤلاء فى غابات (كدح) وأحراشها؛ ويقول كثير من المؤرخين: إن هذه الجزائر

يسكنها قوم متوحشون ، فلما جاء الملايو اختفوا وفروا إلى رءوس الجبال ؛ وهناك قوم من المؤرخين يردون أصول الملايويين إلى الأسكندر المقدونى ، وهذا منقوض من أساسه ؛ وبعض المؤرخين ينسبون سكان (ملاكا) ، و(بنكاليس) ؛ و(سلاغور) إلى مزيج من الجنسين الساكى والجاكون ، ومن هذين تفرعت أغصان الدوحة الملايوية ؛ والمؤرخ « جورجى زيدان » كلام طويل لا يعدو أحد هذه الأقوال ، وزاد على هذا شيئاً غريباً ، وهو : أن الإنسان الأول وجد فى الهند الشرقية ؛ قاصداً بهذا أن السلالة البشرية أصلها من جزائر الهند الشرقية .

وكما ثارت زوبعة الخلاف فى أصل الأمة الملايوية ، وإلى أى جذر من السلالة البشرية يتصلون به ـ كذلك احتدم الخلاف بينهم فى أول رقعة من جزائر الهند الشرقية وجدوا على سطحها ، فذهب قوم إلى أن أصل وجودهم كان فى (جوهور) ، ورد هذا ؛ وقال آخرون : إن أول بقعة وجدوا على ظهرها إن هى إلا فى (سومطرا) ؛ وقال البعض الآخر : إن وجودهم كان فى (Mengkabau) فى الجهة الغربية من (سومطرا) ، ومع ما يكتنف هذه المذاهب والأقوال وما يحيطها من غموض وإبهام ، إذ أن الملايويين الأول لم يخطوا شيئاً مما يتعلق بتاريخهم وأصلهم ؛ بل لم تكن وسائل التدوين لديهم معروفة ، فلم يعرف التدوين فى أوساطهم إلا بعد أن غمر الإسلام هذه الجزر ، حينذاك أنشأوا لهم الألفباء ، وهذه الألفباء مؤلفة أكثرها من الحروف العربية إلا خمسة حروف لا غير ـ نعم مع كل هذا ، فلا تزال الأكثرية الساحقة من مؤرخيهم يتفقون على أن أول وجودهم كان فى قلب (سومطرا) .

وأول دين عرفه أهل هذه الجزائر هو الدين البرهمى ، ثم تلاه الدين البوذى ، وهذان الدينان تسربا إليهم من الهند ، فإن سهولة المواصلات بين الهنديين بجزائر الهند الشرقية معروفة لدى القارىء .

ولما كثر تردد تجار العرب بهاته الجزائر للكسب والتجارة ، وقبضوا على زمام الأعمال التجارية ـ شرعوا يبثون الاسلام وينشرون الرسالة المحمدية من حين إلى آخر من أواخر القرن التاسع ، فلم يكد ينتصف القرن الخامس عشر حتى اكتسح الاسلام جزر الهند الصينية من أقصاها إلى أقصاها ، وفاض على (جاوا) فوجد فيها قلوباً مستعدة تلقفته كما تتلقف الأرض الجرداء قطر الندى وحب الغمام .

وأول ضيف من الجنس الأبيض فتحت هذه الجزر صدرها لاستقباله غير (مركو فولو السائح الايطالى) هم البرتغاليون ، فالهولنديون ، فالانجليز ؛ ويرجع عهد البرتغاليين بها إلى سنة ١٤٩٨ م ، فقد سر على عاصمة جزائر الملايو (ملاكا) رجل برتغالى اسمه (بسكو ديكاما)

كان قد سمع عن وفرة حاصلات البلاد وخصب تربتها وخيراتها الكثيرة ، فجاء كطليعة في ثلة من أصحابه فاندهر الملايون حينما وقعت أنظارهم على أولئك الأناسي البيض ، وأطلقوا عليهم لقب (Benggali Puteh)، أي الهندي الأبيض ، وقد بلغ بهم الطمع والخوف منهم ، أن كانت المرأة الملايوية إذا أضجرها ابنها الصغير بكثرة الصياح وأرادت إسكاته صاحت : Benggali Puteh Datang ، أي جاء الهندي الأبيض ، فيضطرب الولد وينام . . . !

وحدث من نتائج زيارة (بكوديكاما) وأصحابه عاصمة بلاد الملايو أن أعجبتهم كل الاعجاب ، وحدثتهم أنفسهم بالاستيلاء عليها ، ونفذوا هذه الفكرة إلى حيز الوجود ، ولم يكلفهم إبراز هذه الفكرة كثير عناء أو جهد ، فقد كانت أساطيلهم العديدة مرابطة حول شاطىء المحيط الهندي بقيادة قرصانهم الشهير (الفنسو ذا البكركي) ، وكان البرتغاليون في ذلك الحين قد بلغوا من القوة والصولة وكثرة الأساطيل ما لا يجهله المطلع على أسفار التاريخ ، فكانوا أشبه بانكلترا في هذا الزمان من وجهة القوة البحرية .

وزحفوا على (ملاكا) بقوادم قرصانهم الكبير ، ومعه العدة والعدد من المدافع وآلات الحرب ، وانزعج أهل (ملاكا) لما سمعوا قصف المدافع ، ورأوا الرصاص يتساقط عليهم كالمطر ، فلم يستطيعوا المقاومة كثيراً ، فدخل البرتغاليون (ملاكا) واحتلوها ، وخدم الحظ ملك (ملاكا)؛ فتسلل لواذاً إلى (جوهور)، وهي ولاية تابعة لحكومته ويعتبر ساكناً عليها .

ويظهر أن حكم البرتغاليين لم يرق في أعين الملايويين؛ إما لشدة ظلمهم وعجرفتهم واحتكارهم صادرات البلاد وواردتها، وإما لمحاولتهم تنصير المسلمين من أهل البلاد ، وبث الديانة المسيحية أو لكليهما ، فكانوا يتربصون بهم الدوائر ، وينتظرون ساعة الخلاص من عسف عمالهم . وجاءت ساعة الخلاص؛ فإن شركات هولندة كانت قد عرفت الطريق إلى هاته الجزائر ودخلت إليها سنة ١٥٩٠ م للاتجار في (البهارات) ، وتعددت شركاتهم وضخم شأنهم وربحوا أرباحاً طائلة من تجارة (البهارات) الموجودة بكثرة في جزائر الهند الصينية .

وعلى أثر هؤلاء، أي في سنة ١٦٠٢ م، جاءت شركة الهند الانجليزية من أوربا إلى سومطرا وتفرقت في نواحي البلاد ، وفتحت لها مراكز كثيرة لتصفية (البهارات) وإرسالها إلى أوربا ، وكان رئيس شركة الهند الانجليزية (المستر جيمس لنكستر) الذي استأذن من ملكته في الذهاب إلى جزائر الملايو للاتجار والتكسب، فأذنت له وزودته برسالة رقيقة إلى ملك (أجيه) توصيه بهذه الشركة خيراً ،وأفهمته في هذه الرسالة الغرض من هذه الرحلة، وأنها تجارية محض .

ومن تلك الاونة ابتدات أواصر الصداقة تنمو وتشتد بين سكان (أجيه) في سومطرا وشركة

الهند الانجليزية ، وشرعت تفتح لها مراكز تجارية فى جزر الملايو ، وتجاوزت هذه الجزر ففتحت لها فروعاً فى جزيرة جاوا ، وترناتى، ومكاسر وسوكدانا وغيرها، ولما كانت هولندة فى ذلك الوقت صاحبة الكلمة النافذة فى جزيرة الهند الصينية،وذات سلطة كبيرة فيها ـ فقد تساندت هى وملك جوهور السلطان « عبد الجليل » عام ١٦٤١ م على طرد البرتغاليين من (ملاكا) التى استولى عليها البرتغاليون ، وكانت معركة حمى فيها وطيس الحرب ، وانتهت بتشتيت شمل البرتوكيسيين ، وتقلص ظلهم منها بالكلية ، وكان من جراء ذلك أن ارتفعت منزلة الهولنديين وامتد نفوذهم ؛ ولما جاءت شركة الهند الانجليزية نفسوا عليها ما لقيته فى أعمالها من نجاح ونفوذ ، وارتفعت حرارة المنافسة التجارية بين الشركات الهولندية والانجليزية،وزاد احتكار محصولات البلاد عن الرقم الطبيعى،وكثيراً ما بذلت شركات هولندا جهد الجبارة فى القضاء على شركة الهند الانجليزية بمراكزها وفروعها المنبثة فى : أجيه ، وبنتن ، وسوكدانا ، وأمبون، وترناتى،وجكرجا،وكريسيك،فذهبت محاولاتها أدراج الرياح ، وأخذت شركة الهند الانجليزية تتعدد فروعها فى كل صقع حلت به شركات هولندا بسرعة مدهشة .

ولا شك فى أن هذه المنافسة الحامية كبدت شركات هولندا خسائر فادحة كان لها أسوأ أثر فى مركزها الاقتصادى ، ودفعت ثمن هذه المنافسة مضاعفاً ، وذلك فوق ما يكابده الهولنديون من خسائر أرواح وأموال فى الحرب التى لا يخبو أوارها بينهم وبين البرتغاليين من جهة ، وبينهم وبين الأسبان من جهة أخرى .

ولما أنهكتهم الحرب وأحسوا الخسائر الفادحة الناتجة عن ثمر هذه المنافسة ، رغبوا فى التكاتف وإحلال الصداقة بينهم وبين شركة الهند الانجليزية ليكونوا يداً واحدة على من ناوأهم ، فرفضت الشركة الانجليزية طلبهم ، محتجة بأن علاقاتهم مع من ينازع الهولنديين السلطة والسيادة جد حسنة ، وليس من السياسة فى قليل أو كثير خلق الأعداء من العدم .

فتوترت العلائق السياسية بين الأمتين المتنافستين، علاوة على توتر علائقهم الاقتصادية ، ولم تظهر آثار هذا التوتر الشديد إلا بعد طرد الهولنديين ـ متساندين مع أهل (بندا) فى أمبون ـ للبرتغاليين المستولين عليها ، واشترط الهولنديون على أهل (بندا) مقابل طرد البرتغاليين منها ، ألا يخلص شىء من حاصلات البلاد إلى غيرهم ، وهذا معناه احتكار مرافق الاقتصاديات ، فرضخ (البنديون) لهذا التعاقد .

وكانت شركة الهند الانجليزية لا تنفك تجوس خلال تلك الديار ، فأدى بها المطاف إلى تلك الجزيرة ، فابتاعت كمية من (البهارات) من أهلها ، فاحتج الهولنديون وعدوا هذا

ماساً بكرامة التعاقد ، وكان هذا هو القنبلة الأولى لاصطدام الهولنديين بالشركة الانجليزية واشتعال الحرب بينهم ، فكان الظفر والغلب بادىء ذى بدء سجالا ، وأخيراً رجحت كفة أساطيل الشركة الانجليزية ودمرت كثيراً من أساطيل منافسيها ، مما أوهن قوائم السياسية والاقتصادية ، بيد أن الانجليز ـ وهم لم يبيتوا فى قلوبهم نية استعمار جزيرة جاوا وما حواليها ـ اكتفوا بذلك الانتصار وغادروا تلك البلاد ، تاركين لهم فيها أثراً حسناً ونفوذاً كبيراً.

وعظم شأن شركة الهند الانجليزية بعد ذلك وتعددت مراكزها التجارية ، فامتد نفوذها وكثرت أساطيلها ، فقررت أن تطرد الاسبانيين من (منيلا) ، وجهزت الشركة عام ١٧٦٢ م أسطولا كبيراً ، والتحم القتال بين الطرفين وغلب الاسبانيون واندحروا ، وحدث فى خلال ذلك أن كانت اسبانيا وانجلترا فى أوربا فى عهد تصاف ، فأعيدت (منيلا) إلى الاسبان احتراماً لعهد الصفاء .

وبين سنة ١٧٨١ وسنة ١٧٩٥ م استولت الشركات الانجليزية على الـ (Badang) ، فلاكا ، اللتين كانتا مستعمرتين هولنديتين ، وانتحى الهولنديون صوب جاوا وسليبس ؛ ثم فى عام ١٧٨٦ م اشترت شركة الهند الانجليزية جزيرة (فولوفينغ) من ملك (كدح) وتولى المستر رفليز منصب الحاكم فيها ، يحكمها ويدير شئونها ، وظهر بعد ذلك نجم المستر رفليز واشتهر أمره فى هذه الجزائر .

ولما جردت شركة الهند الانجليزية الحملة للاستيلاء على جزائر جاوا وسليبس وانتزاعها من يد الهولنديين ، كانت تلك الحملة الكبيرة تحت قيادة اللورد مينتو والمستر رفليز ، وكان لهم من ضعف هولندا بتلك الجزائر وسوء التفاهم بينها وبين انجلترا فى أوربا أكبر محفز ، فاستولوا عليها دون كبير عناء ونصب ؛ ولكن تحسن العلائق ورجوع المياه إلى مجاريها بين هولندا وانجلترا عقيب ذلك ، كان ثمنه إرجاع جاوا وملاكا لهولندة ، وكان هذا فى عام ١٨١٤ م .

وأعجب المستر رفليز بسنغافورا ، وهى إذ ذاك جزيرة مقفرة وموحشة ، وعرف بذكائه وفطنته مركز هذه البلاد فى المستقبل وأهمية موقعها فاشتراها من السلطان « حسين شاه » عام ١٨١٩ م .

وجاء عام ١٨٢٤ م بمعاهدة ودية بين هولندا وشركة الهند الشرقية ، كان من ضمن شروطها إرجاع (ملاكا) إلى الشركة الانجليزية ، فضمت (ملاكا) نهائياً إلى (فولو فينغ) و(سنغافورة) ؛ وصارت تلكم البلدان الثلاث باسم الشركة الانجليزية حتى الآن ؛ وكانت (ملاكا) من عام ١٥١١ م إلى عام ١٦٤١ م فى يد البرتغاليين ، ومن عام ١٦٤١ إلى عام ١٧٩٥ م

في يد هولندة ، ومن ذلك التاريخ إلى ساعتنا هذه صارت في يد الانجليز كما يعرفه الباحث؛ ونحب أن نذكر هنا ـ بمناسبة إرجاع المستر رفليز جزائر جاوا للحكومة الهولندية ـ حادثة تاريخية لم تحل عقدتها إلا في الوقت القريب ، وهي : أن بعض الانجليز توهموا ممالأة المستر رفليز للهولنديين وخيانته أمته، وعابوا عليه قبوله إرجاع جزيرة (جاوا) الغنية مقابل جزيرة (ملاكا) الحقيرة التي لا تكون شيئاً مذكوراً إذا نسبت إلى جزيرة (جاوا) ، ومات المستر رفليز المفكر العظيم مغضوباً عليه من أكثرية الشعب الانجليزي ؛ غير أن الأعوام الأخيرة أظهرت لهم أن المستر رفليز بعمله ذاك وإقصائه هولندا عن شبه جزيرة (ملقا) برهن على بعد نظر وسداد رأي يستحق لأجلهما خلود الذكر ، وانقشعت عن أعينهم تلك الغشاوة السوداء، فقاموا بنصب تمثال له في أكبر شارع في سنغافورا تخليداً لذكراه ، وسموا باسمه إحدى المدارس الثانوية بسنغافورة ، وهي مدرسة رفليز .

وبقيت هذه الجزائر تحت اسم (شركة الهند الانجليزية) إلى عام ١٨٥٨م، حيث ألحقت بمستعمرات التاج في أيام الملكة فيكتوريا ؛ وكان من أهم وصايا الملكة فكتوريا لولاتها وعمالها : عدم التداخل في شئون البلدان الأخرى المستقلة التي تجاور مستعمرات التاج إلا في حال الاضطرار، كاندلاع الثورات والتخوف من امتدادها إلى مستعمراتها .

ولما كثرت الثورات في تلك الجزائر المستقلة ، ولم يعد في طاقة ولاتها من ملوك الملايو القضاء عليها وتهدئة أولئك الثائرين ؛ أوجس الانجليز خيفة من امتداد هذه الثورات إلى مستعمراتهم الهادئة ، فذهب بعض الولاة منهم إلى (فيرق) والبعض الآخر إلى (نكرى سمبيلن) و (فهنغ) وهدأوا أولئك الثائرين وقعد في كل من البلدان الثلاثة مستشار .

أما (كدح) و(فرليس) و(ترغكانو) و(كلنتن)، فقد كانت تابعة لولايات ملك (سيام)، ثم تنازل عنها ملك سيام لانكلترا في عام ١٩٠٩ م ، فوضعت في كل منها مستشاراً ، ثم انتهى الأمر بارسال مستشار آخر إلى (جوهور) ، وضمتها إلى مستعمرات التاج ، كما يعرف ذلك المتتبع لسير الحوادث وأحوال الشعوب . ؟

[سنغافورة] طه السقاف العلوي

مصادر المقال :

(١) سجارة ملايو .
(٢) تواريخ الملايو بقلم د . واو . وتنيديه .
(٣) تواريخ الامة الملايوية .
(٤) حكاية عبد الله منشي لعبد الله منشي .
(٥) طبقات الامم لجرجي زيدان .
(٦) حياة الشرق للعلامي جمعة .